الدرس الثاث والثلاثون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد » :

بابٌ قول الله تعالى { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة:٢٣] .

وقوله : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } الآية [الأنفال:٢] .

****

هذه الترجمة ((**بابٌ قول الله تعالى** ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] عقدها الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد لبيان هذه العبودية العظيمة من عبوديات القلب؛ وهي التوكل على الله سبحانه وتعالى في الأمور كلها والأحوال جميعها ، وفي شؤون العبد الدينية والدنيوية .

والتوكل : هو اعتماد القلب على الله وتفويضه الأمور إليه سبحانه وتعالى إيماناً بكفايته جل وعلا وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأمور كلها بيده وطوع تدبيره وتسخيره سبحانه وتعالى .

والله عز وجل أمر عباده في كتابه بالتوكل عليه واتخاذه جل وعلا وحده وكيلا دون أن يُجعل معه شريك في ذلك كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:٩] ، ونهى جل وعلا عن اتخاذ وكيلٍ معه كما قال الله سبحانه وتعالى في أوائل سورة الإسراء: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا(٢)﴾ . ففي القرآن أمرٌ بالتوكل عليه وحده واتخاذه سبحانه وتعالى وحده وكيلا ، وفيه نهيٌ عن اتخاذ وكيل مع الله ، لأن الأمور كلها بيد الله عز وجل؛ فهو المعطي المانع ، الخافض الرافع ، القابض الباسط ، المعز المذل ، الذي بيده أزمة الأمور ومقاليد السماوات والأرض ، فما شاء جل وعلا كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا من واجبات الإيمان العظيمة وأسسه المتينة التوكل على الله سبحانه وتعالى وحده في الأمور كلها .

والتوكل عمل القلب؛ أي هو عبودية قلبية ، لكن هذه العبودية تصحب المسلم في أموره كلها ، لأن المسلم لا غنى له عن التوكل على الله جل وعلا في كل أموره الدينية والدنيوية ، فالعبادة بأنواعها لا غنى للعبد في شيء منها عن التوكل على الله ، ومصالح العبد الدنيوية أيضاً لا غنى له في شيء منها عن التوكل على الله سبحانه وتعالى . ولهذا

فإن التوكل عبادةٌ تصحب المسلم مصاحبة دائمة في كل أموره ، إن أراد أن يصلي يحتاج إلى التوكل ، يصوم يحتاج إلى التوكل ، يتصدق يحتاج إلى التوكل ، يبر والديه يحتاج إلى التوكل ، يصل رحمه يحتاج إلى التوكل ، أيضا مصالح العبد الدنيوية في تجارته في سفراته في بيعه وشرائه وجميع أموره كل ذلكم يحتاج فيه إلى التوكل على الله سبحانه وتعالى ، لأنه لا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى .

وأساس التوكل الذي عليه يُبنى : معرفة القلب بأن الله عز وجل هو الملك الرب المدبر المتصرف في الأمور ، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذي لا حول للعباد ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى ، ثم يَتبع هذه المعرفة اعتماد القلب على الله وثقته بالله وتفويضه الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم يَتبع ذلك فعل السبب دون اعتمادٍ على السبب وإنما الاعتماد يكون على الله سبحانه وتعالى . فهذه أمور آخذ بعضها ببعض لابد منها في تحقيق التوكل على الله سبحانه وتعالى .

وفي الآية التي جعلها عنواناً لهذه الترجمة وهي قول الله عز وجل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣] جعل وجود التوكل على الله تبارك وتعالى شرطاً في الإيمان ودليلاً على صحة الإيمان ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾. وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصر ، فقوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾أي : وحده دون أن يُجعل معه سبحانه وتعالى شريك ، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ أي : لتكن قلوبكم معتمدة على الله فيها تفويض الأمور كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، وحده جل وعلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ؛ فجعل ذلك شرطًا في الإيمان ودليلاً على صحته .

ولهذا فإن التوكل من الإيمان كما دلت على ذلكم الآية ، لأنه من أعمال الإيمان وهو عمَل قلبي من أعمال القلوب ، وكما أنه من أعمال الإيمان فإنه أساسٌ يقوم عليه الإيمان ويحتاجه العبد في جميع أمور الإيمان من عبادة وطاعة وذل وخضوع وغير ذلك لا غنى له عن هذا الأمر العظيم الذي هو التوكل على الله سبحانه وتعالى .

وفي القرآن الكريم يُجمع في آيات كثيرة بين العبادة والتوكل ، التقوى والتوكل ، الهداية والتوكل ، الإسلام والتوكل ، الإيمان والتوكل ، في آيات كثيرة جداً يُجمع بينها ؛ وهذا مما يبين مكانة التوكل في الدين وحاجة العبد إليه في إسلامه في إيمانه في عبادته في تقواه في هدايته في جميع أموره ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥)﴾ ، ويقول جل وعلا: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣] . العبادة غاية ، والاستعانة الذي هو طلب العون والتوكل على الله تبارك وتعالى وسيلة لتحقيق هذه الغاية ، ولا يمكن أن تتحقق هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، إذ لا يمكن أن يكون عبداً لله إلا إذا أعانه الله ، لا يمكن أن يكون متقياً لله سبحانه وتعالى إلا إذا

أعانه الله ، لا يمكن أن يكون مهتدياً على صراط الله تبارك وتعالى المستقيم إلا إذا أعانه الله تبارك وتعالى ، فهو يحتاج إلى التوكل في ذلك كله ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، العبادة غاية والاستعانة وسيلة لا تتحقق تلك الغاية إلا بها ؛ ولهذا شُرع عن سماع المؤذن يقول «حي على الصلاة حي على الفلاح» أن يقول من يجيب : (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهي كلمة استعانة وتوكل ، ولهذا أيضاً شُرع للمسلم في كل مرة يخرج فيها من بيته كما في حديث أنس في السنن أن يقول : «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» ، يشرع له أن يقول ذلك في كل مرة يخرج من بيته لمصلحة دينية أو مصلحة دنيوية ، فإذا قال ذلك قيل له: «هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ» ، وقال الشيطان لآخر كيف لك السبيل بمن هُدي وكُفي ووُقي؟

وشُرع للمسلم كما في حديث أبي الدرداء يروى مرفوعاً وموقوفاً أن مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وَإِذَا أَمْسَى سَبْعَ مَرَّاتٍ «حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» كَفَاهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى مَا أَهَمَّهُ من أمور دنياه وأخراه .

فهذا يبين لنا حاجة العبد الماسَّة إلى أن يكون متوكلاً على الله سبحانه وتعالى في جميع المصالح جميع الأمور الدينية والدنيوية يحتاج فيها أن يكون دوماً وأبداً متوكلاً على الله ، ولهذا قال العلماء التوكل عبادة قلبية مصاحبة للمسلم في كل أموره ، ليس في أموره الدينية حسب بل في أموره الدينية والدنيوية ، العبد يحتاج إلى هذا التوكل في كل الأمور .

وينبغي التنبه هنا إلى أن التوكل المشروع المأمور به في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه هو اعتماد القلب على الله وثقته به مع بذل الأسباب التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده ببذلها ، ولاحظنا في الآيات المتقدمة الجمع بين التوكل وبذل السبب ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣] ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ)) وقال : ((اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)) ، وفي حديث عمر بن الخطاب قال : ((لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا)) ، وهذا فيه أيضاً ذكر السبب وذِكر بذل الأسباب ، لأن الطيور لا تبقى في أوكارها وإنما تطير في الصباح الباكر تبحث عن الرزق ، قال ((لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ)) .

فالشاهد أن حقيقة التوكل تنتظم أمرين ألا وهما : اعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى ، مع بذل الأسباب التي أمر الله عباده ببذلها ودعاهم إلى فعلها دون تعدٍ للشرع وحدوده في هذا الباب باب بذل الأسباب .

والناس في هذا المقام ثلاثة أقسام :

١. قسمٌ أتوا بالتوكل على الله سبحانه وتعالى ولكنهم عطلوا الأسباب التي أمر الله عز وجل عباده بفعلها ؛ فقالوا نحن المتوكلون على الله لكنهم لا يبذلون الأسباب التي أمر الله عباده ببذلها وفعلها ، وهؤلاء عملهم تواكل.

ولهذا يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذُكر له جماعة سافروا إلى الحج ولم يأخذوا زاداً وقالوا نحن المتوكلون على الله ، فقال رضي الله عنه : « أَنْتُمُ الْمُتَوَاكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الأَرْضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» ، إذا كان عنده مثلا أرض معدَّة للزراعة؛ التوكل على الله سبحانه وتعالى بأن يُلقي البذر وأن يحرث وأن يزرع وأن يعمل ،ولا يعتمد على عمله ولا يعتمد على الأسباب التي فعلها وإنما يعتمد على الرب العظيم سبحانه وتعالى .

ولهذا فإن تعطيل الأسباب وعدم فعلها إخلالٌ بمقام التوكل الذي أمر الله سبحانه وتعالى عباده بتحقيقه ، سيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه كان يبذل الأسباب في أموره كلها؛ جمع بين درعين صلوات الله وسلامه عليه ، ولبس فوق رأسه المغفر والبيضة والخوذة كل هذه الأشياء استعملها عليه الصلاة والسلام ، وانتقل في بيع وفي شراء وفي غير ذلك من الأعمال بذل صلوات الله وسلامه عليه الأسباب ودعا العباد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وأمرهم بذلك صلوات الله وسلامه عليه .

فالتوكل حقاً : أن يبذل العبد السبب دون أن يكون معتمدا على السبب بل يعتمد على الله سبحانه وتعالى ، ولهذا من كان عنده أرض زراعية وعطل الأسباب وقال "إن شاء الله أن تكون حديقة فيها من أنواع الفواكه والثمار والزهور وغير ذلك يكون أما أنا لن أضع فيها بذراً ولن أغرس فيها شجرة" ، أو آخر مثلا يقول عن نفسه أنه متوكل على الله ويقول "إن كتب الله لي في هذه الحياة أولاداً يكون لي أولاد لكن لن أتزوج إلى أن أموت" ، أو آخر مثلا يقول "إن كتبني الله سبحانه وتعالى أو إن شاء الله أن أكون من كبار العلماء المحققين الفقهاء العالمين يكون ذلك، لكن لن أقرأ كتابا ولن أحضر علما ولن أحفظ متناً ولن أتعلم ولن أجلس في شيء من مجالس العلم" يموت ولا يتعلم ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال : ((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، مَنْ يَتَحَرَّى الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ)) ، ولهذا قال الشاعر في ذم أمثال هؤلاء :

تمنيت أن تمسي فقيهًا مناظرا   بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة   تلقيتها فالعلم كيف يكون

أي لابد فيه من بذل الأسباب . فالشريعة جاءت ببذل الأسباب وأيضا في الوقت نفسه أن لا يُعتمد على الأسباب وإنما يُعتمد على الرب العظيم الذي بيده جل وعلا أزمة الأمور ، في العلم يطلب الإنسان العلم ولكنه دوماً يسأل الله أن يرزقه العلم النافع وأن يزيده علما وأن ينفعه بما علَّمه ، وكان نبينا عليه الصلاة والسلام كل يوم إذا أصبح بعد أن يصلي الصبح يقول بعد أن يسلِّم : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا وَرِزْقًا طَيِّبًا وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا)) هذا قسم .

٢- القسم الآخر من الناس: من يبذلون الأسباب ويقومون بالأسباب ويفعلونها ولكن يعطلون التوكل ، يعتمدون على الأسباب ويعطلون التوكل على الله تبارك وتعالى ؛ وهؤلاء مآلهم إلى الخذلان والحرمان والعياذ بالله .

٣- والحق وسط بين هاتين الضلالتين وحسنةٌ بين هاتين السيئتين : سيئة من عطل الأسباب ، وسيئة من عطل التوكل ؛ وهو التوكل على الله والثقة به والاعتماد عليه مع بذل السباب التي أمر الله سبحانه وتعالى عباده ببذلها وفعلها .

الآية الثانية فيما ساقه المصنف رحمه الله تعالى قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾ ؛ وهذه الآية جاءت في بيان أوصاف المؤمنين الكمَّل الذين جمعوا بين صلاح الظاهر والباطن ، جمعوا بين تحقيق الإسلام وتتميم الإيمان فوصفهم الله عز وجل بعبوديات قلبية عظيمة ثابتة في قلوبهم وهي في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ؛ وجل القلب خوفاً وخشيةً من الله سبحانه وتعالى . زيادة الإيمان بسماع كلام الرحمن جل وعلا ، تأثر القلب بتلاوة القرآن وسماعه والانتفاع بذلك . والأمر الثالث : التوكل على الله ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ؛ وهذا هو الشاهد من هذه الآية للترجمة؛ ذكر هذه العبودية في أوصاف عباد الله تبارك وتعالى المؤمنين .

وقوله : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال:٦٤] .

****

وقول الله سبحانه وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ حسبك الله : أي الله كافيك ، والحسب : الكافي . ومن أسماء الله تبارك وتعالى «الحسيب» وهو بمعنى الكافي ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء:٦] ، فالله جل وعلا هو الحسيب الكافي من توكل عليه وأحسن في الالتجاء إليه سبحانه وتعالى .

قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ أي : الله كافيك .

﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : وكافي من اتبعك من المؤمنين .

فمعنى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ﴾ أي الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين . وأخطأ خطئاً شديداً فادحاً من قال في معنى الآية "إن المراد أي حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين" ؛ هذا خطأ فادح لأن الحسب هو الله جل وعلا ، هو وحده الذي يتوكل عليه ويلتجأ إليه وهو كافي عباده .

فقوله جل وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه فيها دعوة للعباد إلى التوكل على الله والثقة به والالتجاء إليه وحده لأنه سبحانه وتعالى هو الكافي ، هو الوكيل ، هو الحسب جل وعلا الذي بيده أزِمَّة الأمور .

وقوله : { وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ } [الطلاق:٣] .

****

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ : أي يعتمد في أموره كلها على الله وتكون ثقته بالله وحده . والثقة توكل بل كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى في مدارج السالكين وهو يتحدث عن عبوديات القلب ومنازل السائرين قال : «إن الثقة هي سويداء التوكل وخالصه ولبُّه» ، الثقة توكل ، فالثقة لا تكون إلا بالله تبارك وتعالى .

ومن الأخطاء الشائعة والكلمات الدارجة على الألسن : القول بالثقة بالنفس ، يقول مثلا "ليكن عندك ثقة بنفسك" ، وربما أيضا تُعقد دورات حول هذا المعنى ؛ دورات في الثقة بالنفس . الثقة توكل لا تكون بالنفس ولا تكون بالغير بل لا تكون إلا بالله . من الأخطاء الشائعة أن يقول : "عندي ثقة بك" هذه مثل قولك "عندي توكل عليك" ؛ لأن الثقة توكل . وكيف تكون الثقة بالنفس وأنت تقول في دعائك كما في دعاء الكرب العظيم «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»!! نعم تبذل الأسباب وتقوم بها لكن لا تكن ثقتك لا بنفسك ولا بالأسباب التي بذلتها ، بل لتكن ثقتك بالله سبحانه وتعالى الذي بيده أزمة الأمور وبيده التوفيق وبيده السداد وبيده الهداية وبيده سبحانه وتعالى صلاح العباد ، الأمر بيده جل في علاه ؛ فهذا من الأخطاء الشائعة في هذا الباب .

إذاً التوكل : هو ثقة القلب واعتماده على الله سبحانه وتعالى وتفويضه الأمور كلها إليه جل وعلا .

قال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ لاحظ أن الآخِر في الآية ثمرة للأول فيها ، وأن هذا الذي هو الحسب والكفاية إنما يكون بالالتجاء والتوكل على الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ من يفوض أموره كلها إلى الله سبحانه وتعالى يكون الله كافيه ما أهمه من أمور دينه ودنياه ، ولهذا مر معنا أنه يقال لمن خرج من بيته متوكلاً على الله قائلا «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» يقال له : «هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ» ولا يقربه شيطان ، ويقول الشيطان للآخر ممن يترصد له: «كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟» .

قال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي : من يفوض أموره إلى الله معتمداً عليه ثقته بالله سبحانه وتعالى فإن الله حسبه أي كافيه ما أهمه من أمور دينه ودنياه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : {حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ } [آل عمران:١٧٣] **قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا : { إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}** [آل عمران:١٧٣] **رواه البخاري .**

****

وختم الإمام المجدد رحمه الله تعالى شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب هذه الترجمة بهذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((«**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له** : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾)) .

هذه الكلمة «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» كلمة توكل ، وعرفنا فيما سبق أن الحسب: هو الكافي وهو الله وحده جل وعلا ، تقدَّم قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه ، فالحسب هو الكافي . فقولك «حسبنا الله» أي الله كافينا ؛ فهي كلمة توكل والتجاء إلى الله سبحانه وتعالى ، متى تقال هذه الكلمة «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» ؟

الغالب عند كثير من الناس قولها في الشدائد والكربات ، وهذا مقام من المقامات التي تقال فيها هذه الكلمة ، لكنها دلت الدلائل في الكتاب والسنة على أن هذه الكلمة تقال في مقام جلب النعماء وفي مقام أيضاً دفع الضر والبلاء .

- مثلاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[التوبة:٥٩] هذا مقام ماذا ؟ مقام جلب نعماء أو مقام دفع ضر وبلاء ؟ هذا مقام جلب النعماء .
- وإتيانها في مقام دفع الضر والبلاء كما في الآية التي ساق المصنف: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .
- وجُمع بينهما أي الإتيان بـ(حسبنا الله) في آية واحدة في القرآن الكريم ، الإتيان بـ(حسبنا الله) في مقام جلب النعماء وفي مقام دفع الضر والبلاء جُمع بينهما في آية واحدة وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾[الزمر:٣٨] ؛ قل حسبي الله : أي في دفع الضراء وفي جلب النعماء ، لأن المقامين ذُكرا في الآية ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي : قُلها في جلب النعماء وفي دفع الضر والبلاء . وممن أوضح هذا المعنى وقرره واستدل له شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

فهذه الكلمة العظيمة يؤتى بها في هذين المقامين: مقام جلب النعماء؛ في مصلحة من المصالح حاجة من الحاجات شأن من الشؤون التي أهمتك تقول «حسبنا الله» ، كلمة تقولها متوكلا على الله مستعيناً بالله مفوضاً أمرك إلى الله ، طالباً كفايته وعونه ومده وتوفيقه سبحانه وتعالى ، وقد مر معنا حديث أبي الدرداء أن من قال حين يصبح وحين يمسي سبع مرات «حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» كفاه الله ما أهمه من أمور دينه ودنياه ، فهذا يتناول الأمرين معاً جلب النعماء ودفع الضر والبلاء . إذاً هي لا تقال في مقام دفع الضر فقط.

أيضا من الأخطاء التي تقع في هذا الباب : أن بعضهم قد يقولها في مقام دفع الضر أو الظلم الذي وقع عليه بأن يقول وهي لفظة شائعة يقول "حسبي الله على فلان" والفعل هذا يوصف بـ«التحسب» يقول فلان يتحسَّب على فلان "حسبي الله على فلان" أو "حسبي الله على من ظلمني" أو نحو ذلك هذا من الأخطاء الشائعة في الألفاظ ؛ لأن الحسب: الكافي ، وإذا فهمنا أن الحسب الكافي فكيف يستقيم الكلام بأن يقول قائل حسبي الله على فلان؟! لأنها هي كلمة استعانة تطلب من الله أن يعينك متوكلاً عليه في دفع ضرٍ أو جلب نفع فتقول «حسبي الله» أي الله كافيني . ولهذا بهذه الصياغة "حسبي الله على فلان أو على من ظلمني" هذا خطأ ولا يحقق المعنى المقصود الذي هو التوكل ، وإنما تقول في مثل هذا المقام : "حسبي الله ونعم الوكيل" ، وأنت بقولك في هذه الكلمة فوضت أمرك إلى الله واعتصمت به والتجأت إليه وطلبت خلاصك ونجاتك وصلاح أمرك منه وحده سبحانه وتعالى .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ((**{حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار**))

ذلك أنه لما دعا قومه عليه السلام وأقام عليهم الحجة وأبان المحجة وأوضح السبيل وأفلس القوم في مناظرته ومحاجته ؛ فلجئوا إلى هذا الأمر وهو ما يزعمونه نصراً للآلهة بأن يأجّجوا ناراً عظيمة وأن يلقوا فيها إبراهيم انتصاراً للآلهة ، وفعلاً جمعوا حطبا كثيرا وأججوا ناراً عظيمة ولم يتمكنوا من إلقائه فيها إلا بصناعة آلة قذفوه فيها من بُعد ، لأنه ما يستطيع أحد منهم أن يقترب من النار ، فألقوه في النار فقال عليه صلوات الله وسلامه مفوضاً أمره إلى الله متوكلاً عليه وحده طالباً كفايته جل وعلا «حسبي الله ونعم الوكيل» أي الله كافيني وأنا متوكل عليه ،

وهو سبحانه وتعالى كافي من توكل عليه والتجأ إليه . فقال عليه صلوات الله وسلامه «حسبي الله ونعم الوكيل» قال الله سبحانه وتعالى للنار : ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] ؛ تحولت النار المحرقة إلى برد وسلام على خليل الرحمن عليه صلوات الله وسلامه وكفاه الله سبحانه وتعالى شر هؤلاء وكيدهم ومكرهم .

وقالها نبينا عليه الصلاة والسلام والصحابة الكرام تأسياً به حين قالوا لهم : ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ؛ وهذا بعد غزوة أحد لما رجع المشركون وأخذ يجمع أبو سفيان العدة ليعود إلى المسلمين زاعماً بأنه سيقضي عليهم ويستأصل الإسلام وأهله ، فمر بأبي سفيان ركب من عبد قيس فقال إلى أين ؟ قالوا إلى المدينة ، قال هل أنتم مبلِّغون محمدا عني رسالة ؟ قالوا نعم ، قال: "قولوا له :إن الناس قد جمعوا لكم" وهذا إرهابًا وتخويفًا للمؤمنين ، فبلَّغ الرسالة ، فكان من النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين معه أن لجئوا إلى الله وفوضوا أمورهم إليه سبحانه .

قال الله عز وجل في بيان ذلك: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ أي بالله ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أي فوضنا أمورنا إلى الله وطلبنا منه وحده جل في علاه الكفاية والوقاية والنصر والتأييد ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ وهذا مما يوضح ما سبق وهو قول الله عز وجل :﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي فهو جل وعلا كافيه .

انتهت الترجمة بهذا الحديث ، مما ينبَّه عليه فيما يتعلق بالتوكل وقد عرفنا أنه عبودية قلبية وأنه لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى ؛ فلذا فإن من الخطاء أن يقول القائل : "توكلت على الله ثم على فلان" ؛ التوكل عبودية قلبية لا تكون إلا على الله ، ولهذا لا يصلح توكل على غير الله سبحانه وتعالى حتى ولو كان معطوفاً على التوكل على الله بـ«ثم» ، فليست كلمة (توكلت على الله ثم على فلان) مثل (ما شاء الله وشئت) لأن "توكلت على الله ثم على فلان" التوكل عبودية وعمل من أعمال القلوب لا يكون إلا على الله ، مع أن من يطلقها لا يريد بإطلاقها الاعتماد ، وإنما يقصد بقوله (ثم على فلان) أي وكلته وفوضته أن ينوب عني في هذا الأمر، لكن التعبير بـ(توكلت على فلان) لا يستقيم ؛ لأن التوكل عبودية قلبية لا تكون إلا على الله سبحانه وتعالى وحده.

- والتوكل على غير الله إن كان فيما لا يقدر عليه هذا الغير ؛كأن يتوكل على ميت أو على مقبور أو على غير ذلك فيما لا يقدر عليه ذلك الغير أو فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .
- لكن التوكل على الغير فيما يقدر عليه؛كسلطان في سلطانه أو تاجر في أمواله مثلا أو صانع في صنعته أو نحو ذلك، يتوكل عليه في أمر يقدر عليه بمعنى أن يحصل عنده شيء من التفات القلب؛ فهذا من الشرك

الأصغر. إذا كان توكلاً على الغير فيما يقدر عليه من مال أو تجارة أو مصلحة من المصالح إذا كان قلبه ملتفتاً إليه فهذا شرك أصغر ، أما إذا كان اعتمادٌ على غير الله سبحانه وتعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فهذا من الشرك الأكبر الناقل من ملة الإسلام .

- وأما الوكالة التي هي توكيل الغير لينوب عن النفس ويقوم مقام الإنسان في مصالحه وأعماله ومهماته فهذه لا علاقة لها في هذا الباب ولها مجالها المعروف وضوابطها المعروفة في الفقه الإسلامي ، ولها أيضا باب أو كتاب خاص في الفقه الإسلامي . فالوكالة التي هي توكيل الغير هذا الأمر لا شيء فيه في مصالح الإنسان وشئونه وأموره ، أما التوكل الذي هو اعتماد القلب فهذا لا يكون إلا على الله سبحانه وتعالى ، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣] أي : عليه سبحانه وتعالى وحده دون سواه .

سائل يسأل عن الاستعانة (استعنت بالله ثم بك) ؛ مثل التوكل ؟

الاستعانة: هي طلب العون ، وطلب العون من الغير فيما يقدر عليه الغير هذا لا بأس به ، وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)) ، فطلب العون من الغير مثلا "أعنِّي على حمل هذا المتاع" أو "أعني على الصعود إلى هذا المكان" أو نحو ذلك فيما يقدر عليه أمر لا حرج فيه .

والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى هذا من الشرك الأكبر الناقل من الملة ، أما طلب العون من الحي الحاضر القادر في الأمور التي يقدر عليها هذا أمر لا حرج فيه .

قال رحمه الله :

فيه مسائل ؛ الأولى : أن التوكل من الفرائض .

ثم ذكر الإمام رحمه الله تعالى المسائل المستفادة من هذه الترجمة قال : «الأولى: أن التوكل من الفرائض» أي من فرائض الدين وواجباته التي افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده ، وهذا مأخوذ من الآية الأولى في هذه الترجمة وهي قوله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا ﴾[المائدة:٢٣] ؛ أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالتوكل فهو فريضة افترضها الله سبحانه وتعالى على عباده .

الثانية : أنه من شروط الإيمان .

أنه من شروط الإيمان كما يدل على ذلكم الآية الأولى لأن الله قال : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة:٢٣] ؛ فجعل التوكل عليه وحده سبحانه وتعالى شرط في الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

تفسير آية الأنفال في أول الأنفال وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ ، وقد مر معنا شيء من تفسيرها .

الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

تفسير الآية في آخرها : أي في آخر سورة الأنفال وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقد مر معنا شيء من بيان تفسيرها ومعناها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، وأيضاً مر شيء من الكلام على معنى هذه الآية .

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة .

السابعة : أنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد .

«**عظم شأن هذه الكلمة**» أي كلمة حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ فهي كلمة عظيمة وجاء ذكرها في القرآن الكريم في مواطن ، وأن إبراهيم الخليل عليه السلام قالها ، وقالها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وقالها المؤمنون ، ودعا الله عباده إلى قولها ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ دعا عباه إلى قولها في جلب النعماء ودفع الضر والبلاء ، فهي كلمة عظيمة .

«**وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد**» أي أن إبراهيم قالها في تلك الشدة عندما ألقي في النار ، وقالها محمد عليه الصلاة والسلام حينما قال الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

والله تعالى أعلم . وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .